الهوية العراقية بين الاستلاب والتعددية في الخطاب الروائي "ليل علي بابا الحزين لعبد الخالق الركابي أنموذجا"

The Iraqi identity between alienation and pluralism in the narrative discourse" The sad night of Ali Baba by Abdul-Khaliq Al-Rikabi as a model

ط.د/نهاد خلوف، د/آسيا جريوي

[1] جامعة بسكرة،(الجزائر)، nihad.khellouf@univ-biskra.dz

[2] جامعة بسكرة،(الجزائر)، assia.djerioui@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2021/07/08 تاريخ القبول: 2021/09/30 تاريخ النشر: 2021/12/20

ملخص:

جاءت الهوية العراقية في شقها الاجتماعي متعلقة بالتجربة التي يحياها الروائي، إنها كثير من الأحيان تتحول إلى شاهد تاريخي على فترة تاريخية، أو ظاهرة اجتماعية ماو من الأعمال الروائية العراقية، رواية "ليل علي بابا الحزين"لعبد الخالق الركابي التي نجدها مرتبطة بالواقع العراقي بعد الاحتلال الأمريكي لبغداد، ولم يكن من باب الصدفة اختيار هذا النموذج، فقد برزت فيه الهوية العراقية وأضفت بظلالها على النص الروائي وكشفت عن تعدد الهويات فيه.

كلمات مفتاحية: الانتماء؛مواطنة؛ الهوية؛ الطائفية؛ الثقافة الغالبة؛ العرقية.

Abstract:

The Iraqi identity came in its social aspect related to the experience that the novelist lives, it often turns into a historical witness to a historical period, or a social phenomenon, and from the works of Iraqi novels, the novel "The Sad Night of Ali Baba" by Abdul Khaliq Al-Rikabi, which we find related to the Iraqi reality after The American occupation of Baghdad, and it was not by chance that this model was chosen, as the Iraqi identity emerged in it and cast shadows on the narrative text, revealing the multiplicity of identities in it.

Keywords: Belonging; Citizenship; Identity; Sectarianism;Dominant culture; Ethnic .

نهاد خلوف: nihad.khellouf@univ-biskra.dz

1. مقدمة:

يثير موضوع الهوية اهتمام الدارسين في الرواية من مختلف الجوانب، حيث تتباين الدّراسات بالكشف عن الهويات المختلفة في الرواية العربية، مثل: (الرواية السورية، والرواية المصرية، والرواية الجزائرية، والرواية العراقية...)،ولعلّ المتأمّل للرّواية العراقية؛ لاسيما روايات مرحلة الأزمة وما بعدها، يجد أن كثيرا من المتخيّلات السّردية العراقية قد تناولت موضوع الهوية، أو تطرّقت لأحد موضوعاتها، مثل:الهويات الفرعية، أو الأقليات العرقية أو الصّراعات الطائفية، حيث صار الحديث عن هوية واحدة وموحدة غائبا أو بالأحرى مغيبا، مما ساعد خطاب الهوية على البروز؛ حيث أن الأحداث التاريخية الكبرى في المجتمعات لا تزول إلا وتترك بصمات واضحة وظاهرة على كافة الأشكال الأدبية، والفنون عامة.

وفي ذلك يشير "ستيوارت هول" (Stuart Hall) إلى القول إن: «المجتمعات المعاصرة تميزت كثيرا بوجود الهويات الجزئية، والنّاس لم يعد بوسعهم امتلاك فكرة موحدة عن هويتهم وإنما يمتلكون العديد من الهويات التي تكون أحيانا متعارضة وملتبسة» (هوليبورن، 2010، صفحة 21)وعليه جاءت الهوية العراقية في شقها الاجتماعي متعلقة بالتّجربة التي يحياها الرّوائي، إنها كثير من الأحيان تتحول إلى شاهد تاريخي على فترة تاريخية، أو ظاهرة اجتماعية ما، خاصة وأن الرّواية صارت ديوان العرب في العصر الحديث، نظرا لسعيها الدّائم إلى الارتباط بالواقع، ومحاولة تصوير أدقّ تفاصيله، إنها تهدف إلى أن «تقدم موضوعاتها بجرأة وصراحة، وتصوّر قضاياها مختلطة بطين الأرض، ومخضبة بقضايا الواقع» (وادي، صفحة 9)، ومن الأعمال الرّوائية العراقية، رواية "ليل علي بابا الحزين" لعبد الخالق الركابي، التي نجدها مرتبطة بالواقع العراقي بعد الاحتلال الأمريكي لبغداد، ولم يكن من باب الصدفة اختيار هذا النموذج، الذي برزت فيه الهوية العراقية وأضفت بظلالها على النّص الروائي وكشفت عن تعدد الهويات فيه.

ومنه جات الإشكالات الآتية : كيف تتجلى الهوية العراقية بين التعددية والاستلاب في رواية "ليل علي بابا الحزين"؟ وماهي الهويات المختلفة ؟

وعلى ذلك سنحاول في هذه الدّراسة التطرق إلى الكشف عن الهوية العراقية بين الاستلاب والتعددية في الرواية التي رسمت الخطوط المختلف لمعنى التعدد والتباين والصراع للهويات بالاعتماد على الإجراء الثقافي والوصفي التحليلي في الدراسة.

ولكن قبل التطرق لموضوع الهوية بمختلف تمظهراتها علينا أن نقف أولا على ضبط العنوان ودلالاته.

2- العنوان:

يتّسم العنوان بكونه علامة فارقة وسمة بارزة، فهو «مفتاح لإضاءة النّص والكشف عن أسراره وخفاياه، ويمثل بنية صغرى لا يمكن أن تنفصل عن البنية الكبرى التي تحتها»(البستاني)

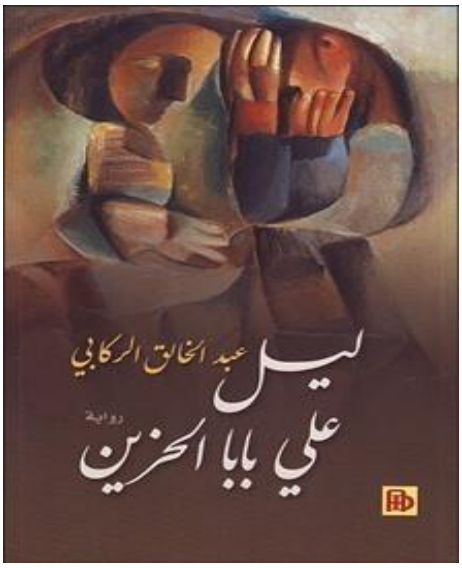

وقد اختار "الركابي" عنوان روايته "ليل علي بابا الحزين" ليمرّر رسالة يختزل من خلالها مضمون النّص الكبير. نص الرواية، في نص صغير. نص العنوان، فيصبح بذلك العنوان يحتوي على رسالة مسنّنة بشفرة لغوية، يستقبلها المرسل إليه الذي يحاول تفكيك رمزية ما هو وراء لغوي.

وبناء على ذلك عنون روايته بـ "ليل علي بابا الحزين" ليصف الليل الطويل والحزين الذي يمر به العراق، والليل هنا هو الاحتلال الأمريكي الذي غزا بغداد فدمّر عمرانها ومنشآتها، وانتهك حرمتها، وسبى أرضها العذراء الطّاهرة، وأكثر من هذا نهب ثرواتها، ودمّر هويتها الثقافية والوطنية، ولوث تاريخها، وحقن شرايين حضارتها زيفا وزورا.

يقول "الركابي": "يوم عُدت بأسرتي إلى بغداد عقب رحلة كابوسية إلى مدينة الأسلاف انتهت باعتقالي. فوجئت بالجيران يرددون كلاما غريبا غير قابل للتصديق مفاده أن "كهرمانة"، في نصيبها القائم في منطقة الكرادة، توقفت يوم التاسع من نيسان عن سكب الزيت في جرارها، حيث شوهد أربعون لصا يأتون تباعا مغادرين تلك الجرار ليتوزعوا تحت جنح الظلام، في شتى أحياء العاصمة»(الركابي، 2013، صفحة 9).وهنا يستحضر الروائي قصة علي بابا والأربعون لصا لتتماشي مع عنوان روايته، فاختار من حكايات ألف ليلة وليلة حكاية " كهرمانة وعلي بابا والأربعون حرامي"، وكهرمانة هي الجارية التي أخذت تصبّ الزّيت السّاخن فوق رؤوس اللّصوص الذين اختبأوا في الجرار، حتى إذا أتى الليل انقضوا على علي بابا الذي سرق أموالهم، بعد أن حصل على كلمة السر "افتح يا سمسم"، وربما اختار هذه الحكاية حتى يؤكد لنا أن العراق هي الكنز المفقود الذي يحوم حوله الطامعون، ويتربّص به اللصوص ليسرقوا خيراته، وينهبوا ثرواته، خاصة في ظل الاحتلال الأمريكي للبلد.

ومن العنوان نقف على ضبط عوامل استلاب الهوية العراقية لدى الروائي كلآتي:

3- عوامل استلاب الهوية العراقية في الرواية:

تطرّق "الركابي" إلى إبراز ملامح الخراب الذي أصاب العراق، والذي تحكمت فيه سلسلة من العوامل منها ما تعلق بالهوية العراقية نفسها، ومحاولة استلابها على امتداد حيز زماني، ومن العوامل نذكر:

أ - الغرب / الأمريكان:

جاءت الرّواية تؤرّخ لحقبة زمانية مهمّة وحساسة من تاريخ العراق، هي مرحلة الاحتلال الأمريكي لبغداد سنة 2003؛ حيث عرض لأنين الوطن وهويته تُسلب منه «بدت العاصمة الآن مستباحة للقوات الغازية: تجابهك المدرّعات الأمريكية، أينما تحركت، بمدافعها، المهيأة للقتل دون سابق إنذار»(الركابي، 2013، صفحة 132)، إن رواية "الركابي" قد تطرّقت لنتائج الاحتلال الأمريكي، والانتهاكات التي قام بها الأمريكيون الذين استطاعوا السّيطرة على القصر الجمهوري، وبالتّالي المساس برمز من رموز السّيادة الوطنية للبلاد، ولهذا وصف العراقيين بأنّهم «مجموعة من المساجين مقيدين في السّلاسل»(الركابي، 2013، صفحة 186)، صوّرت تفاصيل التّدخل الأمريكي في الحكومة العراقية من خلال تنافس المرشّحين الأمريكيين علىالطّبخة العراقية، وكأنّ العراق «أمسى مضمار سباق يتنافس على نتائجه المرشّحون الأمريكيون لتحقيق المكاسب»(الركابي، 2013، صفحة 266).

لقد رسم لنا الرّوائي صورة فسيفسائية للحصار الذي عاشته العراق في تلك السّنوات الصّعاب التي ظهرت فيها الحضارة الغربية وقد غابت عنها ديمقراطيتها المزعومة، فسقط عن وجهها القناع، وحضرت الحفل بوجهها الحقيقي بدل التّنكري، بعد أن عمدت إلى تجويع الشعب العراقي؛ «تلك السنوات لقنتني درسا استثنائيا...ذلك لأن كلّ الدّلائل تؤكد أن هذا الغرب يستثمر على أفضل وجه، حماقة السلطة الحاكمة في بغداد وذلك بتجنيد كل قواه لاحتلال وطني، متخذا من فرق التفتيش...خير ذريعة لتجريد الجيش بالتدريج من أسلحته التقليدية...حتى بات الاحتلال أشبه بالقدر الذي لا مفرّ منه»(الركابي، 2013، صفحة 42)، فتسليم مقاليد السّلطة لحكام غير أكفاء كان وراء ما آلت إليه العراق، جاعلا منها لقمة سائغة في أفواه القوى الطّامعة، حتى أضحى الاحتلال الأمريكي بالنّسبة للعراقيين قدرا محتوما لابدّ من التّعايش معه.

ب- العوامل الاجتماعية والاقتصادية ودورها في استلاب الهوية:

عرضت الرّواية الظّروف القاسية التي عاشها الشّعب العراقي، والتي عملت على استلاب هويتهم وتفتيتها «فمنذ فرض الحصار على العراق في أعقاب حرب (عاصفة الصحراء)، عدّت الكتب ضمن الكماليّات

التي لا ضرورة لاستردادها، فبات الحصول على الإصدارات الجديدة أمرا بالغ الصّعوبة: يتم التّعامل مع النسخ الشّحيحة التي تتسّرب إلى الداخل عبر الحدود مثل منشورات سريّة، يهرع أصحاب مكاتب الاستنساخ إلى تصويرها وتجليدها قبل بيعها إلى زبائنهم بأسعار مغرية»(الركابي، 2013، صفحة 26)، وهنا يعقد مقارنة بين عراق الماضي وعراق الحاضر، عراق الحرب وعراق ما قبل الحرب أين كانت مركز إشعاع ثقافي وحضاري لتتحول إلى صحراء قاحلة بعد حالات الحصار الشامل، أين أضحت تعيش على ما يتم استراده من مطابع أخرى خارج العراق.

ج – المؤسسات الحكومية :

نقل "الركابي" مختلف أشكال الضُّعف الذي نخر المؤسّسات الحكومية العراقية فأوهنها، فانتشر الفساد والخيانة في مرافقها «هناك مقهى يقع شرقي المدينة على حافة البحيرة يؤمه عادة المهربون واللصوص وشداد الآفاق»(الركابي، 2013، صفحة 50)، وفي حديثه عن "رياض صابر" مدير المتحف الذي كانت له علاقات مع رجال الأمن، مما سمح للمهربين من أمثال "نجيب الكذاب" بتهريب آثار نفيسة إلى إيران، الأمر الذي هدّد هوية العراق التاريخية فيقول: «أعرفه إنه أفضل زبائني، لم يكتف طوال السنوات الماضية بتهريب قطع أثرية نفيسة إلى إيران فحسب؛ بل نكلفه بما له من صلات بالجهات الأمنية، بتأمين الحماية لي، وأن أجتاز بزورقي البحيرة»(الركابي، 2013، الصفحات 12-13).

ومن ثمة كان انتشار الفساد عاملا من عوامل ضعف الهوية الوطنية، مما جعل هاجس فقدان العراق/البلد/الهوية يطارد "الركابي": «كنت أشعر وكأنني على مشارف حلم يوشك أن يتحوّل إلى كابوس، ذلك اليقين أن كل ما يحيط بي من سابلة وشوارع وبنايات وسيارات مهددة بالفناء»(الركابي، 2013، صفحة 52)

4.الاختلاف الديني ومحنة الهوية في الرواية :

أ. الاختلاف الديني:

يمثّل الدّين المعتقد الإيماني، حيث «تقوم فكرة الدين على الإيمان بمبادئ وطقوس مشتركة تجعل الهوية الدّينية تتجاوز المجتمع القبلي أو القومي، وتتجاوز الأخوة بالدّم لتصبح أخوة بالعقيدة والإنسانية، لتشمل المجتمعات الإنسانية الأخرى»(غليون، الصفحات 146-147)

فرغم الاختلاف الثّقافي الموجود بين البشر إلا أنهم جميعا يؤدون طقوس دينية كل حسب معتقداته؛ إذ يلعب الدّين دورا محوريا في تشكيل الهوية الثّقافية لأي أمة من الأمم و«لكنّه لا يشكلها بمفرده وإلا

أصبحت الهويات وفق للمنظور الديني محددة حسب الدّيانات السماوية الثّلاثة المعروفة، ولأصبح الجميع يحملون هوية واحدة رغم تمايزهم واختلافهم في اللغات والثقافات والحضارات»(البوني، 1982، صفحة 29)،هذا الأمر كان مختلفا في العراق الذي وجد نفسه أمام هويات دينية متقاتلة ومؤدلجة سياسيا، فهذا هو «حال الدّولة العراقية التي باتت بعد عام 2003 عاجزة عن فرض سيادتها أو استخدام القوة لمواجهة الميليشيات والجماعات الطّائفية والإرهابية التي تقود أزمة العنف في العراق والقضاء عليها»(شيحة، 2017، صفحة 17).

ولو حاولنا عرض الهويات الدينية التي تطرق لها "الركابي" يمكن أن نحصرها فيما يلي :

ب . الهوية الإسلامية :

تمثّلت الهوية الإسلامية من خلال بعض الطّقوس والأحداث والعبارات، فمثلا برزت الهوية السّنية من خلال زوجة "يحي" وهي تدعو للرّاوي «كانت امرأته الغارقة بملابسها السّود . وقد لفت حول رأسها فوطة متوجة بعصابة مشدودة إلى مستوى الحاجبين، وقد انزوت على إحدى الأرائك محاذرة أن تلتقي عيناها عيني، وهي لا تكف على الدّعاء لي راجية الله أن ينصرني على أعدائي بـ"جاه المصطفى"»(الركابي، 2013، صفحة 337)، ومن المعلوم أن الدّعاء والتوسّل بـ"جاه الرسول صلى الله عليه وسلم"هو اعتقاد سائد لدى جميع المسلمين، لأنه شفيع الأمّة يوم القيامة، ولو أراد الكاتب إظهار الهوية الشّيعية لاختار الدعاء والتوسل بالأئمة الاثني عشر، الذين يعتقد بهم أصحاب المذهب الشّيعي، هذا الأخير، أي الهوية الشيعية، التي ظهرت من خلال "حمزة مقطاطة"، و"نجيب الكذاب" المتعاونين مع الإيرانيين، كما نلمحها أيضا من خلال بعض الإيرانيين القادمين للزّيارة. «عليك بالقدوم إلى ذلك المنفى الحدودي لتكتشف أن "علي بابا" يقع هناك، فالإشراف على عمليات اجتياز الحدود مهنة تدر ذهب، فضلا عن تزاحم ذلك الموضع بمئات الشاحنات الإيرانية المحملة بمختلف البضائع، هناك طوابير بين الزوار الذين يعدون بالآلاف، وهم يستميتون لاجتياز الحدود لزيارة العتبات المقدسة»(الركابي، 2013، صفحة 176)،وتشمل العتبات المقدسة عند الشّيعة مراقد الأئمة الاثني عشر، وفي العراق يوجد منها الكثير في النّجف وكربلاء وسمراء وغيرها.

ج. الهوية المسيحيّة :

المسيحيّة «تاريخ قديم بالعراق يعود إلى إرهاصات الديانات الأولى، وربما بدأ التبشير في ربوعه عقب سقوط أورشليم على يد طبطس سنة 75 ميلادية من شره، وهناك من اعتقد أن حدياب (أربيل) قد تنصرت العام 9 ميلادية»(الخيون، 2007، صفحة 160).

كما أن المسيحيّة في القرون الأولى لنشأتها دخلت «في نزاعات مذهبية مريرة تركت آثارها جلية فيما كتب الآباء المسيحيّون، ومن اليهودية الرسمية، وتلتها نزاعات فكرية بين الدعاة الذين اتجهوا للتبشير بالمسيحية، بين أولئك الذين اعتنقوا المسيحية مع اليهود الذين يعرفون باسم المسيحيين اليهود»(شيحة، 2017، صفحة 24)، إضافة إلى أن «دعاة المسيحية وأنصارها واجهوا اضطهادا طوال القرون الثلاثة الأولى، إلا أن نفوذ الكنيسة المسيحية، كان قد امتد بعيدا من بلاد ما بين النهرين حتى غرب أوروبا وشمال إفريقيا»(شيحة، 2017، صفحة 24).

ولو ولينا وجوهنا شطر الرواية، لألفينا أن الهوية المسيحية برزت في عدة مواضع، وقد مثلثها شخصية (دينا) المسيحيّة المحجّبة التي كانت تعمل في متحف (الأسلاف) أيام (بدر الطارش)، ثم أصبح مديرها "رياض صابر"، وكان يطاردها في المتحف، فتركت العمل لديه وارتبطت معه بعلاقة زواج شرعي على يد الشيخ "غازي فياض"، هذا الزّواج الذي كان سريا، وغير موثق رسميا بسبب ظروفهما العائلية، فهو متزوج وهي مسيحية، فدينا هذه كانت «تعيل وحدها بيتا هاجر أغلب رجاله إلى أوروبا وأمريكا كما هو دأب هذه الطائفة في السنوات الأخيرة يضخ بحشد من عجائز وعوانس فاتهن قطار الزواج»(الركابي، 2013، صفحة 66)، فالهجرة كانت السبيل الوحيد للحفاظ على الهوية والانتماء الديني تقول "دنيا": «نحن سلالة آيلة إلى الانقراض!

أضافت بصوت خفيض، وكأنها تخاطب نفسها. وسألتني وهي تحدق في عيني مباشرة:

أتدري يا أستاذ كم عدد المسيحيين الذين يعيشون في مدينة الأسلاف؟ إنهم لا يكادون يتخطون أصابع اليدين إلا قليلا»(الركابي، 2013، صفحة 276)، فالذات المسيحية تحس بالإهانة وتتجرع الألم، وأكثر من هذا كله تفقد هويتها وهنا «يتزعزع التصور الهوياتي للذات مما يؤدي إلى صعوبة التعايش والاحتمال»(كلود، 2008، صفحة 282).

وفي حديث "دنيا" عن الحجاب تقول: «والحجاب هل سمعت من قبل الآن بمسيحية تعمد إلى الاقتداء بالمسلمات في ارتداء الحجاب و... أفراد أسرتي المسنات...من المحال عليهن الخروج حاسرات الرؤوس، ذلك لأنهن لن يطقن النظرات المنتقدة والمستهجنة التي تلاحقهن في رواحهن ومجيئهن، هذا إذا لم يتطور

الأمر إلى الزجر علنا أو الإهانة والضرب كما حدث أكثر من مرة»(الركابي، 2013، الصفحات 277-278)، ولم يكتف "الركابي" بذلك؛ بل تطرق للتهديدات التي كانت تتعرض لها الهوية المسيحية من قبل بقية الطوائف، وهو ما جعل هذه الهوية مستهدفة أين بعث مفهوم الجزية الذي استعيد على نحو مفاجئ لتهديد المواطنة، مما أدى بهذه الفئة إلى اتخاذ الهجرة سبيلا للنجاة، وخوفا على حياتها ودينها، خاصة وأن العراقيين ظهروا «على مختلف دياناتهم ومبادئهم أكثر تمسكا بالمواطنة التي جمعتهم منذ زمن بعيد، وما حصل من تجاوزات ضد الأديان الأخرى بسبب الجماعات التكفيرية، التي وزعت إيذاءها على الجميع، وما سببه العائدون توا من إيران من الحاملين عقلية الإعلام الديني المتشدد من ضغط على أهل الأديان الأخرى»(الخيون، 2007، صفحة 5)،ولكن الأمر اختلف بعد ذلك نظرا لاصطدام الطوائف، وتضارب المصالح، واضطرار بعضها إلى الهجرة «عند تل العاشق، قرب كنيسة المدينة الوحيدة المهملة بعدما تركها آخر رجل دين مسيحي، اضطر إلى الهجرة عقب تلقيه سلسلة تهديدات كانت تخيره بين إشهار إسلامه أو دفع الجزية»(الركابي، 2013، صفحة 336)، وهنا يلاحظ غياب الحوار الديني والتعايش السلمي الذي كان موجودا في هذا البلد، قبل أن تفرقه الفتن وتعزف على أوتاره المحن التي فرضها عليه الاحتلال، وغدتها السياسة من منطلق "فرق تسد"،ولعل "الركابي" لم يغفل أيضا في حديثه عن المسيحية أن يظهر بعض طقوسها ولغتها، فمن المعلوم عنهم أنهم يتكلمون الآرامية والسريانية إلى جانب اللغة العربية؛ إذ يقول: «أجابتني لتلتفت بعدها نحو الجالسين في الغرفة سائلة إياهم بلغتهم الخاصة عن شيء ما»(الركابي، 2013، صفحة 237)كما أن البعض من أصحابها يستنجدون بمريم العذراء في دعائهم «وبعدما شكرتني بحرارة داعية العذراء إلى أن تحميني في حلي وترحالي»(الركابي، 2013، صفحة 193).

فالعذراء "مريم" تمثل عند المسيحيين رمز القدسية; لأنها أم المسيح يسوع عليه السلام.

ويذهب الروائي إلى أنه من أسباب استهداف المسيحيين عدم وجود قوة تساندهم، وتدافع عنهم سواء كانت قوة عشائرية كبيرة أو ميليشيات مسلحة «من الواضح أن الجميع، وليس رياض وحده، يعدون هذه الفئات المسكينة لقمة سائغة سهلة المنال !

فأجبته مدركا بعد فوات الأوان خطيئتي التي لا تغتفر:

لكونها مسيحية تنتمي إلى تلك الطائفة الوديعة المسالمة التي لا شأن لها بالأعراف العشائرية الراعدة»(الركابي، 2013، الصفحات 193-194).وفي هذا الصدد تبدو لنا الطائفة المسيحية مسالمة وديعة على عكس بعض الطوائف الأخرى التي اتسمت بالعنف والدموية، وفي هذه الجزئية تماس مع رواية

"سنان أنطوان" "يا مريم" في إرجاعها لسبب اضطهاد المسيحية إلى عدم وجود قوة تحميهم «قال إن الخطف كان قد أصبح آفة تطال الجميع بغض النظر عن الدين والطائفة، وهم يفضلون من لا ينتمي لعشيرة تأخذ بثأره»(سنان، 2014، صفحة 116)

د .الهوية اليهوديّة :

تجسدت الهوية اليهودية في الرّواية في قوله: «وكان فرج اعتاد ...أن يجيب كل من يسأله عن وضعه في بغداد بترديد نصف بيت الشّعر، الماء والخضراء والوجه الحسن، وكان يضيف منتشيا أن دجلة تقع على مرمى من حجر سكنه، أما العذارى المسيحيّات واليهوديّات فيحضرن هنا وهناك سافرات الوجه لا يغضضن الطرف، بل يتحدينه بنظرات مماثلة»(الركابي، 2013، صفحة 168)،ومن خلال المقطع السابق تظهر لنا بعض صفات اليهوديات والمسيحيات كسفور الوجه، وغياب الحياء.

لقد ذهب "ديورانت"(Duran) إلى أن اليهود « لم يوجدوا تاريخهم بل تاريخهم هو الذي أوجدهم. وإنا لنراهم من بداية ظهورهم خليط من سلالات كثيرة، والحق أن وجود جنس نقي في الشرق الأوسط بين الآلاف من تياراته الجنسية التي تتلاطم فيه أمر يتطلب مستوى من الفضيلة لا يعقله عاقل، على أن اليهود كانوا أنقى أجناس الشرق الأدنى غير النقية لأنهم لم يتزوجوا بغيرهم من الأجناس الأخرى إلا كارهين، من أجل هذا حافظوا على جنسيتهم واستمسكوا بها استمساكا عجيبا»(ديورانت، 2013، صفحة 218).

وعليه فقد سيطر على اليهود هاجس النقاء لأنهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار، وفي اختلاط نسلهم بغيره فقدان لهذه الخاصية.

ولو عدنا إلى الرواية لاكتشفنا التعايش الموجود بين يهود العراق وبقية الطوائف في قوله: «غادرا بعدها المطعم نحو مقهى "حسن عجمي" المجاور مارين بطريقهما بمدرسة "شماس اليهودية"» (الركابي، 2013، صفحة 224)، إذ «شكل يهود العراق وحدة متجانسة عكس الطوائف اليهودية، فلم يكن هناك هجرات يهودية في المنطقة عدا ما كان يأتي من فارس وحتى موجه السفارديم(...) وهذا ما أدى إلى محافظتهم على أصالتهم وتقاليدهم الحضارية مدة طويلة»(الخيون، 2007، صفحة 146)، ولكن هذا الأمر لم يغفل المطامع اليهودية والبحث عن ما خلفه "يهوه"، واتضح ذلك من خلال تساؤل بدر: «عماذا تبحثون؟ :

التفت تومسون نحوه ...يبحثون عما خلفه "يهوه" وراءه.

ومن يكون هذا!؟ !

إنه رب أرباب اليهود.

أستغفر الله العظيم، فلو كان كذلك إنهم يبحثون في المكان الخطأ، ذلك لأنه يفترض بالسماء أن تكون مستقر الرب لا الأرض»(الركابي، 2013، صفحة 224)،وهذه بعض الاعتقادات الخاطئة لليهود.

وفي قوله «كان المقهى يكاد يضيق بحشد من وجوه جديدة شخصت بينها على الفور عدد من الغربيين. بين رجال وأربعة منهم حرصوا على اعتمام طاقيات سود صغيرة دلالة على كونهم يهودا»(الركابي، 2013، صفحة 157)،وهنا تبرز لنا العقلية اليهودية الساعية إلى المحافظة على هويتها الثقافية، وتمايزها عما سواها من خلال لباسها، فاللباس علامة فارقة، وسمة بارزة تمايز بين الثقافات والحضارات.

كما تطرق إلى أن الاحتلال الأمريكي لبغداد كان وراء التواجد اليهودي بالعراق، إذ أن المتأمل لتاريخ العراق يجد أنه يوجد بهذا البلد نوعين من اليهود، منهم ما تواجد قبل الاحتلال الأمريكي وبالتالي فهو يشكل جزء من ذاكرة العراق الثقافية، ومنهم من قدم مع الاحتلال، خاصة وأن الحكام الذين تعاقبوا على الكرسي العراقي كانوا لا يرحبون بالزيارة اليهودية فحرموهم من دخول البلد، لكن الأمر اختلف بعد سقوطها في الأيادي الأمريكية اللعينة «يبدو أن موسم السياحة إلى بلاد ما بين النهرين قد أزف قلتها متهكما... فأجابني بهجت...بفضل الأمريكان دون شك»(الركابي، 2013، صفحة 157).

5- العرقية:

أ – الهويتان الكردية والتركمانية:

ربط "الركابي" الهوية الكردية والتركمانية بالبعثة التي ترأسها تومسون فارتأى أنهما قدمتا معها «وساهم في تغيير الطابع العشائري لمدينة الأسلاف، المستحدثة؛ لأنها ضمت خليط من الانجليز وأرمن وأكراد وتركمان اشتهر منهم مهندس معماري ورسام مختص بقراءة الخط المسماري، فضلا عن رئيس عمل كردي وآخر تركماني»(الركابي، 2013، صفحة 224)،وفي ذلك إشارة إلا أنه هاتين الهويتين ليستا متجذرتين في الثقافة العراقية ولم يكونا أساسا من مكوناتها، وإنما قدمت مع الاحتلال واستقرت بها.

كما حاول أيضا الروائي أن يبرز تجلي الهوية الكردية من خلال اللباس «ولذلك بات من المألوف أن ترى الكردي وهو يتهاوى بـ "شرواله" وسط مجموعة من العرب "المعقلين"، وثمة أعداد من الأرمن يرطنون بلغتهم الخاصة»(الركابي، 2013، الصفحات 224-225).

ب – الهويتان الصابئة واليزيدية :

لم يورد لهما "الركابي" أثر في علي بابا الحزين.

ج – الهويات الدينية والفكرية:

لا يُفوّت الرّوائي إبراز الهويات الدّينية المتطرّفة بتفكيرها السّاذج غير المنطقي، وهو ما ينذر بحوادث أكثر تطرّفا وعمقا «مشهد قطيع الماعز...وقد أخفيت أعضاؤها التناسلية وأثداؤها الطافحة باللبن بملابس داخلية بمختلف الألوان»(الركابي، 2013، صفحة 232)،وفي هذا المقطع استعان عبد الخالق بالتورية للتّعبير عن الفساد السّياسي، كما ربط بين ظهور الميليشيّات الأصولية التي بدأت تظهر بوضح النهار وتنظيم القاعدة ممثلة "بالزرقاوي" وبين التزوير الذي كان يجرى في الانتخابات النيابية؛إذيقول«الوضعالنيابيازدادسوءالاسيمابعدانتشارشائعاتعنعملياتالتزويرلجأتإليهاالقوىالمنفذة، سعيا منها إلى أن ينتهي الاستفتاء بتلك الطريقة، حتى إذا جرت الانتخابات البرلمانية في الخامس عشر كانون الأول وتأجل إعلان النتائج إلى السنة القادمة، عادت الشائعات تزداد قوة عن عمليات تزوير جارية على قدم وساق.

ومعها برز اسم "الزّرقاوي" كزعيم لمنظّمة متطرّفة قامت بسلسلة عمليات انتحارية ذهب العشرات من الأبرياء ضحايا لها، وأخذ أعضاء المليشيات الأصولية يظهرون علنا في وضح النهار بعدما كانوا يحرصون على التكتم في تحركاتهم»(الركابي، 2013، الصفحات 283-284)،وبناء على ما سبق ظهر أن التطرف السياسي لا يقل خطورة عن التطرف الديني الذي عبر عنه الروائي في قوله: «ما يجري في طول البلاد وعرضها. وفي بغداد على وجه التحديد من مجازر مروعة تمثلت بمهاجمة الطوائف المتناحرة إحداها الأخرى عامة إلى إحراق بيوت الله وذبح أئمة المساجد، وسمعنا مذهولين بمجالس فاتحة تقامر على أرواح المغدورين، ينحر فيها أفراد الطائفة المناوئة عضضا من الأضاحي.»(الركابي، 2013، صفحة 290).

وفي هذا السياق إشارة صحيحة إلى الحرب الدموية التي كانت قائمة بين السنة والشيعة، والتي راح ضحيتها آلاف الأبرياء.

6. خاتمة:

وفي ختام بحثنا يمكن القول أن موضوع الهوية بات يثير اهتمام الدارسين في مختلف النصوص، وبالأخص النّص الروائي الذي يعبر عن هويات المجتمعات المعاصرة في صور عدةكالرواية العراقية التيتعد نموذجا من هذه النصوص التي كشفت عن التعددية في الهوية العراقية باختلاف الأديان وكما كشفت استلاب الهوية العراقية من طرف العدو الأمريكي في فترة من فترات التاريخ وهو ماصورته رواية (ليل علي بابا الحزين).

ويمكن إجمال النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة فيما يلي:

1/إن العراق يضم تنوعا في مكوناته العرقية والدينية، الأمر الذي جعل منه لوحة فسيفسائية جميلة، كانت مصدر غني له في الماضي، لكن الوضع تغير مع ظهور التناحرات التي أذكتها نار الفتن وغذتها السياسة.

2/لعب الاحتلال الأمريكي للعراق سنة 2003 دورا بارزا في تفجير الصراعات المذهبية والطائفية، فظهر ما يسمى بالعنف الطائفي.

3/جاءت رواية "الركابي" "ليل علي بابا الحزين"، تؤرخ لحقبة زمانية مهمة من تاريخ العراق، كما حثت على ضرورة الالتفاف حول الهوية الوطنية ونبذ الخلافات.

4/عالجت الرواية قضية التعدد الديني والطائفي والثقافي في العراق.

5/ برزت في الرواية محددات الهوية الثقافية من دين وتاريخ ولغة وعادات وتقاليد، فكانت الهوية الثقافية هي أم الهويات.

6/عبرت الرواية العراقية عن التعددية في الهوية في فترة من تاريخ العراق.

ومن التطلعات في الرواية العراقية هل يمكن أن تتّحد الهويات المختلفة ؟هل يمكن للرواية العراقية أن تكشف بأسلوب جديد الهوية البارزة بتقنيات معاصرة في السرد؟

7. قائمة المراجع:

المؤلفات:

1. هارليس وهوليبورن،(2010)سوسيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حامد حميد محسن، دار كليوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، د ط.
2. غليون برهان، (د. ت)نقد السياسة، الدين والدولة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت لبنان.
3. البوني عفيف،(1982) الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، منشورات العالم العربي،باريس، دط.
4. شيحة عبد المنعم،(2016) المواطنة الطائفية، الدراسات الدينية، سلسلة ملفات بحثية، 27 يونيو.
5. الخيون رشيد،(2007) الأديان والمذاهب بالعراق، منشورات الجمل بغداد.
6. وادي طه، الرواية السياسية، دار النشر للجمعية المصرية، دت.
7. كلود دوبار،(2008) أزمة الهويات وتفسير تحول، تر: رندة بعث، المكتبة الشرقية، بيروت.
8. سنان أنطوان، (2014) يا مريم، المؤسسة العربية للنشر.
9. ديورانت ول وايريل، (2013) قصة الحضارة،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل للطبع والنشر، دت.
10. الركابي عبد الخالق،(2013) رواية ليل علي بابا الحزين، دار مكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، شارع المتنبي.

مواقع الانترنيت:

1.البستاني بتول حمدي، ثريا النص في حكايات الموصل الشعبية، قراءة في التركيب والدلالة على الموقع الإلكتروني.www.iass-het?fune+fultesct68 :

2. الركابي عبد الخالق، الدورة الخامسة عشرة : 2014 – 2015القصة .. الرواية .. المسرحية، الموقع الإلكتروني:https://www.alowais.com/abdrkabi

ملحق:

1.التعريف بالروائي: عبد الخالق الركابي(الركابي ع.، 2015)

- ولد سنة 1946، في محافظة واسط، قضاء بدرة، العراق.
- تخرّج في جامعة بغداد، أكاديمية الفنون الجميلة عام 1970.
- عمل في التدريس الثانوي تسع سنوات قبل أن يحال على التقاعد لأسباب صحية.
- بدأ حياته الإبداعية فناناً تشكيلياً، إلا أنه شرع في كتابة الشعر أثناء حياته الجامعية، وقد نشرت مجلة الآداب البيروتية نتاجه الشعري آنذاك.
- بدأ في السبعينيات بكتابة أولى رواياته (نافذة سعة الحلم) التي أصدرها عام 1977.
- عمل في بداية الثمانينيات مشرفاً لغوياً في مجلة (آفاق عربية) العراقية. والتحق بمجلة (أسفار) سكرتيراً للتحرير، كما عمل محرراً في مجلة (الأقلام)، ومجلة (الثقافة الأجنبية).
- مارس كتابة القصة القصيرة وأصدر مجموعة قصصية بعنوان (حائط البنادق)، فضلاً عن مجموعة قصصية لم ينشرها في كتاب، كما أصدر مسرحيتين غير أن اهتمامه تمحور حول كتابة الرواية.
- أسهم في كتابة فصل من كتاب (نجيب محفوظ.. إمبراطور الرواية العربية)، الذي أصدرته مجلة الصدى.
- حظي نتاجه الروائي باهتمام نقدي واسع في العراق والوطن العربي. بالإضافة إلى أن هناك العديد من الدراسات الجامعية التي كتبت عنه.
- ترجمت العديد من رواياته إلى لغات عدة منها: الصينية، والإنجليزية، والإيطالية.
- اختير ضمن خمسة روائيين عالميين من أجل كتابة التاريخ العربي الحديث على شكل رواية في إطار (جائزة قطر العالمية للرواية)، إذ كتب روايته (مقامات إسماعيل الذبيح).
- فازت روايته (الراووق) بجائزة معرض الشرق الكبير في بغداد عام 1987.
- فازت روايته (قبل أن يحلّق الباشق) بجائزة أفضل كتاب أدبي عام 1990، عن دار الشؤون الثقافية العامة.
- فازت روايته (سابع أيام الخلق) بجائزة أفضل رواية عراقية عام 1995.
- فازت مسرحيته (البيزار) بجائزة الدولة للمسرح في العراق 2000.

2.أهم مؤلفاته:

- (نافذة بسعة الحلم)، رواية،1977.
- (من يفتح باب الطلسم)، رواية، 1982.
- (مكابدات عبد الله العاشق)، رواية، 1982.

- (حائط البنادق)، قصص قصيرة، 1983.
- (الراووق)، رواية، 1986.
- (قبل أن يحلّق الباشق)، رواية، 1990.
- (سابع أيام الخلق)، رواية، عدة طبعات آخرها عام 2011.
- (البيزار)، مسرحية، 1999.
- (نهارات الليالي الألف)، مسرحية، 2001.
- (أطراس الكلام)، رواية، عدة طبعات آخرها 2009.
- (سفر السرمدية)، عدة طبعات آخرها 2006.
- (ليل علي بابا الحزين)، رواية، 2013.
- (ما لم تمسسه النار)، رواية، 2016.
- (مقامات إسماعيل الذبيح)، رواية، طبعة ثانية 2016.